أخلاقيات الفاتح المسلم

ظهرت أخلاقيات المسلم وعقيدته السمحاء في شخص السلطان محمد الفاتح، عندما قام بفتح القسطنطينية، فما أن تم له الفتح العظيم حتى خاف الشعب البيزنطي وأسرع يتجه نحو كنيسة أياصوفيا، وعندما دخل الفاتح المدينة أمر بإحراق جثث القتلى تفاديًا للأمراض، وسار على ظهر جواده إلى الكنيسة حيث تجمَّع الشعب البيزنطي ورهبانه، وما أن علموا بوصول السلطان الفاتح حتى خرُّوا سجَّدًا راكعين بين أنين وبكاء وعويل، ولما وصل الفاتح ترجل من على ظهر حصانه، وصلى صلاة الشكر لله ـ عزَّ وجلَّ ـ على توفيقه له بالفتح، ثم سار يقصد شعب بيزنطة ورهبانه، ولما وجدهم على هذه الحالة من السجود إنزعج وتوجه إلى رهبانهم قائلا: «قفوا، استقيموا، فأنا السلطان محمد الفاتح، أقول لكم ولجميع إخوانكم ولجميع الموجودين هنا إنكم منذ اليوم في أمان في حياتكم وحرياتكم».

وقد ساعد هذا التصرف المتسامحم على عودة النصارى الذي فروا من المدينة، وأمر الفاتح قادته وجنوده بعدم التعرض للشعب بأذى، ثم طلب من الناس العودة إلى ديارهم بسلام، وحوَّل أياصوفيا إلى مسجد على أن تصلى فيه أول جمعة بعد الفتح، كان الفتح يوم ثلاثاء، وكانت أيا صوفيا أكبر كنيسة في العالم، وأقدم مبنى في أوربا كلها[1].

ويتحدث التاريخ عن أن سلوك محمد الفاتح عندما فتح القسطنطينية ودخلها منتصرًا ظافرًا، كان سلوكًا مختلفًا تمامًا، فقد كان الفاتح يستطيع حسب قوانين

(١) «العثمانيون والحشارة» د/ محمد حرب (ص٧٤).

الحرب في هذا الوقت أن ينفي شعب المدينة التي سقطت راكعة تحت قدميه، أو استملاك واستعباد هذا الشعب، لكن الفاتح قام بما لم يستوعبه فكر هؤلاء الغربيين الذين عاصروه من تسامح ورحمة، فقد قام بالآتي:

١ ـ إطلاق سراح الأسرى نظير مبلغ مادي قليل، وإسكانهم في المنازل الواقعة علي ساحل الخليج.

٢ ـ لم تكن إباحته مدينة القسطنطينية لجنوده ثلاثة أيام عقب الفتح إباحة بربرية ظالمة، كما يحدث في بعض المعارك أنذاك، فلم تغتصب امرأة ولم يذل عجوز مسن ولا طفل ولا راهب، ولم تهدم كنيسة ولا دير، مع أن المدينة رفضت التسليم، وأبقى الأديرة وبعض الملكيات الهامة في أيدي أصحابها البيزنطيين.

٣ ـ اعترف لليهود بملكيتهم لبيعهم كاملة، وأنعم بالعطايا على الحاخام موسى كامسالي.

٤ ـ عَيَّن في ١٤٦١م بطريقًا للجماعات الأرمينية يدعى (يواكيم) ليقوم بالإشراف على مصالح الأرمن ويوحد صفوفهم.

٥ ـ استعجل في إعادة إعمار المدينة، فقد كان فتحها في ٢٩ مايو، وبدء تعميرها في ٢ يونية ١٤٥٣م، وأمر بنقل جماعات كثيرة من مختلف أنحاء الدولة إلى القسطنطينية للإسهام في إعادة إنعاشها.

٦ ـ أعاد محمد الفاتح للأرثوذكس كرامتهم التي نال فيها اللاتين الكاثوليك بأن أعطاهم حق انتخاب رئيس لهم يمثلهم ويشرف على شؤونهم، وأصبح يكولاديوس (جناديوس) أول بطريق لهم بعد الفتح العثماني

للقسطنطينية، وبذلك أنقذ الفاتح إيمان الأُمة التي فتح ديارها، وأحيا الأرثوذكسية بعد أن أخذت تخفت.

٧ ـ أعطى محمد الفاتح للجماعات الدينية المختصة في المدينة حق التصرف في مسائل الأحوال الشخصية مثل الزواج والطلاق والميرث وأمور الوفاة. وكان هذا الحق مهضومًا في أوربا في ذلك الوقت[١].

٨ ـ أصبحت طرق التجارة التي كانت تسيطر عليها السفن الغربية في أيدي العثمانيين، تفرض عليها الضرائب في وقت السلم، كما هي تحت أيديهم في وقت الحرب.

٩ ـ فزعت البابوية في روما من تحول الملايين من سكان جنوبي شرقي أوربا إلى الإسلام، وكتب البابا نيقولا الخامس إلى جميع الحكام الأوربيين طالبًا منهم طرح الخلافات وتوحيد الجهود ضد العثمانيين والعمل على تشكيل حلف صليبي آخر، كما حاول خليفته البابا بيوس الثاني تجديد الهمم، وقد حالت نزاعات الأمراء والملوك دون تحقيق هذا الحلم البابوي في روما.

١٠ ـ يعتبر فتح القسطنطينية عامل دعم للهيبة العثمانية من خلال السيطرة التي حققتها على العالمين الإسلامي والأوربي، فقد فتحت القسطنطينية بعد عدة محاولات لفتحها وحصارها منذ العهود الإسلامية القديمة، فكان النجاح التام في فتحها بمثابة هدم للجدار، والحاجز التاريخي الذي لم يستطع فيه المسلمون فتحها من قبل، وإنهارالجدار الجغرافي في الأوربي، مما ساعد على زحف المسلمين إلى أوربا فكان له مردودٌ إيجابيٌّ هائلٌ.

---

(١) «العثمانيون» د/ محمد حرب.

١١ ـ يعتبر فتح القسطنطينية حدًا فاصلاً بين القرون الوسطى والقرون الحديثة.

ولعل أكثر نتائج هذا الفتح هو يقين الفاتحين بأسباب نصرهم، وهي الإيمان بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وتمثل هذا في قول محمد الفاتح معددًا ومفتخرًا بقيم الإسلام، فيقول في شعره:

نيَّتي: امتثالي لأمر الله، وجاهدوا في سبيل الله.

وحماسي: بذل الجهد لخدمة ديني، دين الله.

وعزمي: أن أقهر أهل الكفر جميعًا بجنودي جند الله.

وتفكيري: منصب على الفتح، على النصر، على الفوز بلطف الله.

وجهادي: بالنفس والمال، فماذا في الدنيا بعد الامتثال لأمر الله.

وأشواقي: الغزو مئات الآلاف من المرَّات لوجه الله.

ورجائي: في نصر الله، وسمو الدولة على أعداء الله[1].

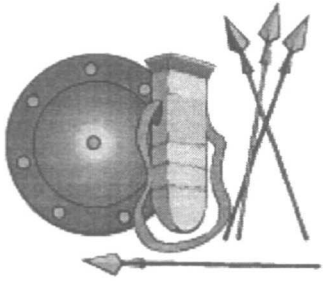

(١) انظر: «العثمانيون والحضارة» (ص٢٧٩).